

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 16 (2012) : 183 - 201
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

المهاجر الجزائري من فاعل اقتصادي إلى مهاجر غير شرعي:
=مسارات حراقة* الغزوات أنموذجا**=

حفيظة قباطي
المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الثقافية والاجتماعية–وهران

مقدمة

شكلت الدوافع الاقتصادية محركا أساسيا لبعض الهجرات التاريخية، حيث كان السعي وراء المال واكتشاف الأراضي والثروات الجديدة هدفا للهجرات الأولى. ويكفي الاطلاع على تاريخ أوروبا لفهم ارتباط الهجرة بسيرورة التوسع الاستعماري والبحث عن الثروات في دول إفريقيا خصوصا بعد الثورة الصناعية، وما ترتّب عنه من استغلال لليد العاملة بالبلدان الإفريقية المستعمرة.

ثم جاءت السنوات الذهبية في منتصف القرن العشرين محفزا للهجرة، وذلك بسبب مضاعفة وتيرة الإنتاج وتوفير فرص العمل في إطار مشروع مارشال لإعادة بناء وإعمار أوروبا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. يذكر ليوزو أنّ الحرب العالمية الثانية كانت السبب في انتقال 45 مليون شخص، حين ساهمت الثلاثون سنة الذهبية في عدّة موجات هجرة معتبرة باتجاه الدول المتقدمة الغنية، اعتمادا على اليد العاملة في إفريقيا وآسيا. إذ تُعّد هذه الهجرات مؤشرا على اختلال وأزمات مجتمعية وما ينتج عنها من علاقات.[1]

وربما تكون ظاهرة الهجرة المغاربية عموما هي المؤشر على هذا النوع من الاختلال، كما تنبئ ظاهرة الهجرة السرية في الجزائر عن استمرارية تبعات هجرة العمال الجزائريين نحو فرنسا.

فهل يمكن اعتبار المهاجر السري وجها جديدا للعامل في علاقته بعولمة الرأسمالية؟ وهل يمكننا الحديث عن انثروبولوجيا المهاجر الجزائري، أو بصيغة أخرى هل أجرينا البحوث

الميدانية الكافية حول المهاجرين الغير الشرعيين أو "الحراڨة" حتى نستطيع الإلمام بالفهم الانثروبولوجي لهذه الظاهرة. من وجهة نظري، للأسف لم تتدعم الجهود بعد لدراسة هذه الظاهرة والإلمام بجوانبها، وما زلنا بحاجة للاستثمار ماديا وعلميا في هذه الظاهرة بجميع أبعادها.

ونفترض أنّ الانثروبولوجيا بأدواتها المنهجية قادرة على فهم التجارب والمسارات الفردية للمهاجرين الغير شرعيين، باعتبارهم المؤشر الذي قد يوضح لنا هذه الظاهرة فهو يشكل "اللّاوعي الاجتماعي"[2] كما عبّر عن ذلك صياد في دراساته.

هدف الدراسة:

سنحاول في هذا المقال تقديم قراءة في أهم المؤشرات عن ظاهرة الهجرة الغير شرعية وارتباطها بالجانب الاقتصادي وسوق العمل العالمي من خلال بحثنا الميداني في الموضوع[3]. لنبتعد عن التأويلات السياسية والمأساوية ونقدم رؤية موضوعية عن هذه الظاهرة التي تستوحي تعقيدها من تاريخيتها[4] وحداثتها على السواء.

منهجية الدراسة:

في هذه الدراسة الانثروبولوجية اعتمدنا على تقنيات المقابلة النصف موجهة والملاحظة بالمشاركة، والتي تقتضي أن نلاحظ عن قرب عالم هؤلاء الشباب. وقد سنحت لنا الفرصة بذلك سواء بمدينة الغزوات أو بأليكانت في اسبانيا. أما الصعوبة التي واجهتنا هي عدم توفر إحصائيات لدى السلطات الجزائرية سواء بالجزائر أو بالخارج. كما لم نعتمد على ما تقدمه الصحافة الجزائرية من أخبار لأنها في نظرنا قدمت صورة عامة عن الواقع. لذلك اعتمدنا كليا على المقابلات الشفهية التي أجريناها مع بعض الشباب في الغزوات وفي أليكانت.

أولا: مفهوم الهجرة غير الشرعية:

1. تعريف الهجرة غير الشرعية:

تعرّف المادة الثانية من الاتفاقية رقم **143** للمنظمة العالمية للعمل الهجرة الغير شرعية "بأنها هذه الأخيرة حيث يكون المهاجر خلال سفره أو عند وصوله أو خلال إقامته أو عمله في شروط تتنافى والاتفاقيات الدولية والإقليمية أو تنافي التشريع الوطني. إذن هنالك

ثلاثة حالات حيث يكون المهاجر في حالة غير شرعية: العبور، الإقامة بمعناها الواسع وممارسة نشاط في الدولة المستقبلة".[5]

2. تعريف الهجرة السرية:

يعتبر عبد اللاّوي حسين أنّ مصطلح الهجرة السرية لم يأخذ مكانه في الخطاب السياسي الجزائري إلاّ مع ظهور هجرة الأفارقة عبر الصحراء في نهاية 1990. ومع الأهمية التي أخذتها الهجرة السرية للجزائريين أصبح هذا المصطلح يشكل النقطة المركزية للخطاب السياسي الجزائري، فبعدما كان يتعلق الأمر ب "الجالية الوطنية في الخارج" ثم "الجالية الجزائرية في الخارج"؛ أصبحوا يسمون "الجزائريين المقيمين في الخارج" وأخيرا "الجزائريين الغير المقيمين بالوطن". هذه التسميات كانت تعبر عن ظاهرة الهجرة ابتداءً من 1973 تاريخ انتهاء تنظيم انتقال العمال الجزائريين نحو فرنسا".[6]

أصبح المشرّع الجزائري يفرّق بين الهجرة الخفية والهجرة السرية، فظاهرة الهجرة السرية بدأت منذ سنوات التسعينات. وجاء قانون 05/98 المؤرخ في 25 جوان 1998 ليعدل ويتمم قانون 80/76 المؤرخ في 23 أكتوبر 1976 والمتضمن القانون البحري، تحت عنوان الكتاب الثالث "الاستقلال التجاري للسفينة" المتمم للجزئين الأول والثاني؛ إذ يحتوي الفصل الخامس "المسافرون خفية" على ثلاث مواد (المادة 857 إلى المادة 859). وتعاقب المادة 545 على الهجرة الخفية أو الركوب الغير مسجل وهي تُجرِم أكثر من الهجرة السرية، إنما يؤخذ على المشرع الجزائري أنه لا يعرِّف المهاجر السري.[7]

ثم جاء القانون الجديد 09/01 المؤرخ في 25 فبراير 2009 ليعدل قانون العقوبات، ففي المادة 175 يعاقب بالحبس من شهرين إلى ستة أشهر وبغرامة من 20000 إلى 60000 دج أو بإحدى العقوبتين كل جزائري أو أجنبي مقيم ويغادر الإقليم الوطني بصفة غير شرعية أو بإحدى العقوبتين أثناء اجتيازه أحد المراكز الحدودية البرية الجوية أو البحرية[8].

ثانيا: ظاهرة الهجرة في أوروبا:

3. ارتباط الهجرة بالتصنيع:

نستطيع أن نلاحظ العلاقة بين الهجرات الأولى والتصنيع وتنامي الرأسمالية من خلال بعض الدراسات حيث تعتبر "ريا وتريبيي" "أنه تاريخيا واقتصاديا تعتبر الهجرات الدولية ظواهر

اجتماعية تندرج ضمن استمرارية ظاهرة النزوح الريفي في أوروبا في القرن التاسع عشر. وتؤكد ذلك بذكر انجلترا وهي أول قوة رأسمالية شهدت إفراغ أريافها واللجوء إلى اليد العاملة الايرلندية، فهجرة العمل مرتبطة بنمو الرأسمالية والتصنيع (...). إذ أصبحت أوروبا –التي اعتُبرت أرض الهجرة في القرن التاسع عشر– وجهة المهاجرين في نهاية القرن العشرين والأسباب مختلفة: البحث عن عمل،الفقر، تحسين الأجر، انعدام البنى الاقتصادية، الكثافة السكانية، القمع السياسي وغياب القانون والكوارث الطبيعية".[9]

1. السنوات الذهبية والهجرة العمالية:

عرفت البلدان المغاربية أفواج من الهجرات نحو أوروبا قبيل وبعد استقلالها استمرت إلى سنوات السبعينات والتي عرفت بالهجرة العمالية. كما تعبر عنها يمينة بن ڤيڤي فيما يلي: "سبّب كل من الاستعمار وأزمة الزراعة التقليدية هجرة الرجال الذين كانوا يأملون بتوفير العيش لعائلاتهم من خلال غربتهم. لتزداد هذه الأخيرة حدّة مع ازدياد طلب أرباب العمل الفرنسيين على اليد العاملة بعد نهاية الحرب العالمية. يعبر عن ذلك أحد الإداريين بمصانع بوجو–Peugeot فرونسوا سيراك: "بالنسبة لي كانت الفترة النشطة لتوظيف العمال المغاربة بعد الحرب مباشرة أي سنة 1940. حيث كنا نعاني ضعف ديمغرافي ونمو اقتصادي، فوجب علينا مواجهة الأمر. لم يكونوا بالنسبة لنا "المسلمين" بل كانوا "مواطنين فرنسيين" يأتون من الجزائر لتشغيل المصانع الفرنسية."[10]

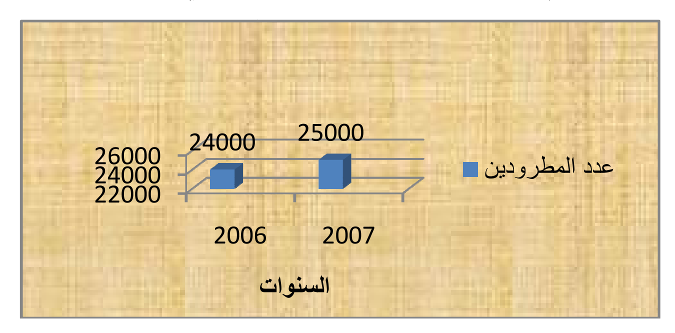
2. واقع وتمثلات الهجرة بفرنسا:

نظرا للارتباط التاريخي الاستعماري لفرنسا بالجزائر، هاجر العديد من الجزائريين للعمل بفرنسا، حيث ساهمت اتفاقيات ايفيان[11] لإعلان استقلال الجزائر في حرية تنقل هؤلاء العمال. تحولت هذه الهجرة في مطلع السبعينات إلى هجرة التجمع العائلي وهذا ما نتج عنه جيل ثاني من أبناء المهاجرين ذوي الجنسية الفرنسية والذين لا زالوا مرتبطين بشكل كبير في علاقاتهم الاجتماعية بالجزائر.

لكن قامت السياسة الجديدة لفرنسا في مطلع هذا القرن، بإصدار مراسيم ضد الهجرة المغاربية من خلال تقييد حريات التنقل وغلق الحدود في وجه الشباب المغاربي، وصلت إلى حد طرد بعض المهاجرين المقيمين في فرنسا بدون أوراق حيث تمّ طرد 24000

مغترب من فرنسا سنة 2006. وكان المنتظر طرد 25000 سنة 2007، حين قام ساركوزي وزير الداخلية آنذاك بإصدار مرسومين: الأول في 31 أكتوبر 2005 يقضي بطرد العائلات بدون أوراق والتي لها طفل متمدرس (انظر الشكل رقم01). هذه الإجراءات ازدادت حدّة بعد تشكيل الاتحاد الأوروبي وتوحيد سياسة الهجرة.

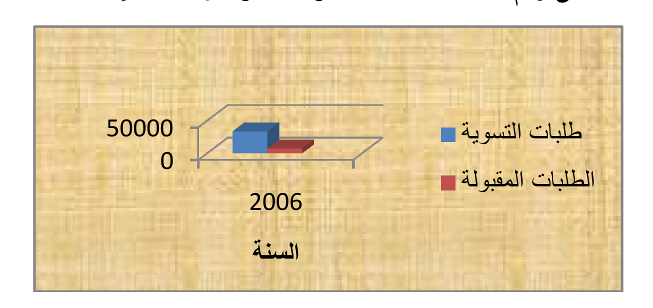
الشكل رقم 01: عدد المطرودين من فرنسا سنتي 2006–2007.



المصدر: الاعتماد على إحصائيات من مرجع "ف.ايرون".[12]

كما يوضح الشكل 02 نسبة الطلبات المرفوضة لتسوية وضعية الإقامة للمهاجرين، حتى بعد إصدار المرسوم الثاني في 13 جوان 2006 "والذي يتعلق بإعادة النظر في ملفات العائلات من باب الاستثناء والإنسانية، والتي تم رفض طلب إقامتها في المرحلة الأولى. حيث تم تقديم 33538 طلب تسوية وضعية والتي تم قبول 6924 منها فق ".[13] بمعنى أنه تمّ رفض 26614 طلب.

الشكل رقم 02: الطلبات المقبولة لتسوية وضعية الإقامة سنة 2006.



المصدر:

<u>Circulaires Sarkozy, Site : www.la-croix.com, site consulté le 31/05/2009.</u>

هذه الأرقام تفسر تدهور فرص الشباب الجزائري الذي يفكر في الالتحاق بعائلته أو أقاربه بفرنسا، مما حفز هؤلاء على فكرة الهجرة السرية عبر اسبانيا. حيث يفسر أحدهم ظروف هجرته برغبته في الالتحاق بوالدته بعد انفصال والديه وزواجها بفرنسا. فقد هاجر سنة 2007 عبر اسبانيا غير أنّ السلطات الجزائرية أرجعتهم، وما يزال يأمل بالهجرة مرة أخرى حيث يصرح:

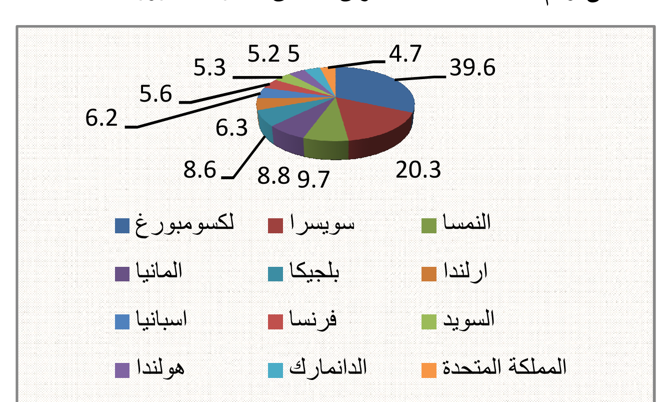
"لقيت روحي لاavenir ، لا والو.. زيد الخدمة غير اللي يحرث عليك وياكلّك حقك ورانا قاع نعرفوا الحالة في هاذ البلاد.. والديا مطلقين ويمّا تزوجت في فرنسا، المشاكل العائلية مخلاونيش نكمل لقرايا في هذاك الوقت، وأنا تاني مكانش عنديle gout في القراية، خرجت في الثانية متوسط بدأت الفكرة نتاع الحرقة دورلي في راسي malgré كنت عايش لاباس مع الجدة وكانت تتهلى فيا. هي تخلص نتاع جدي شهيد بصح مكانش بيا الدراهم أنا كنت حاب نشوف يمّا بأي طريقة وmalgré الأم نتاعي كانت تسيفطلي الدراهم والصوالح بصح كنت كي نهدر معاها نقولها أنا ما خصنيش الدراهم والصوالح أنا خصني وجهك". "أنا ندير le possible ونروحلها وما تهمني حتى حاجة من ناحية نتهنا من هذ لبلاد وهذ الحفرة نتاع غزوات ومن ناحية نطفي الجمرة اللّي شاعلة في قلبي هاذا شحال." (بطال، 28سنة)

لم تقم هذه السياسة الفرنسية على أسس عادلة وعلمية، بل تُعد نتيجة لتمثلات خاطئة، وتنّم عن جهل الرأي العام في فرنسا بواقع الهجرة في بلادهم وفي البلدان المجاورة. إذ

يطلعنا "فرونسواايرون" على واقع التمثلات المبالغ فيها بالنسبة للهجرة في الدول الأوروبية فيقول بأنّ الرأي العام في دول أوروبا يبالغ في تضخيم نسبة المهاجرين وعلى رأسهم فرنسا (انظر الشكل03).

فقد أثبتت الدراسة الاجتماعية الأوروبية التي أحصت سنة 2003 الآراء العامة لكل بلدان أوروبا، إذ وجدت أن كل دولة – عدا استثناءا– لها الإحساس بأنها تستقبل أعلى نسبة من المهاجرين. ويتصور الفرنسيون متوسـ النسبة المئوية للمهاجرين بثلاثة أضعاف ما تصرح به منظمة "O.C.D.E" أي 29% مقابل 10% فقـ ".[14]

الشكل رقم 03: نسبة المهاجرين ببعض الدول الأوروبية سنة 2005.



المصدر: (A. Réa, M. Tripier, OCDE 2007 ; FR : 2000.p88)

إضافة إلى ذلك يوضح الشكل 03 أنّ فرنسا تتموقع خارج دائرة الدول الأوروبية المعنية بالهجرة وتداعياتها، إذ نلاحظ أن دوّل لوكسومبرغ وسويسرا والنمسا وألمانيا تحتل الصدارة بأعلى نسبة مهاجرين، متبوعين ببلجيكا وايرلندا، وتحتل اسبانيا أعلى نسبة قبل فرنسا وهذا ما يجبرنا على التساؤل: ما الذي يميّز فرنسا أكثر من الدول المعنية بالهجرة أم أنّ طبيعة الهجرة المغاربية هي التي تسبب مشاكل للحكومة الفرنسية؟ وتدل هذه التمثلات الغير الواقعية على أنّ الهجرة موضوع خصب للتأويل والفهم الخاطئ خاصة في بلدان كانت لها علاقة تاريخية مع الهجرة كفرنسا.

ثالثا: أسباب الهجرة الغير شرعية في اسبانيا:

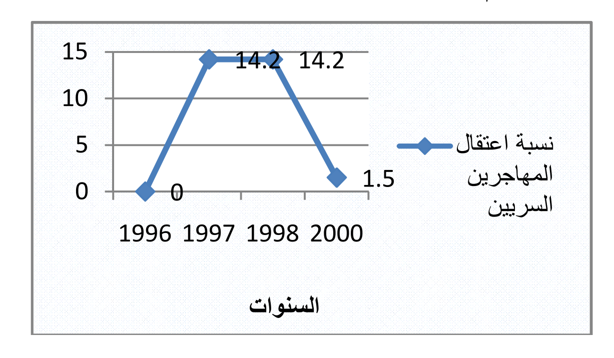
أما الهجرة "الغير شرعية" فقد تمّ استثمارها ولا يزال في الخطابات السياسية والإعلامية والمدنية، لما تكتنفه من أوضاع اجتماعية وإنسانية مؤلمة قد تصل إلى حد كونها درامية.[15] إذ يعتبر كل من "ريا وتريبيي" "أن مثل هذه الظواهر الاجتماعية تأخذ وقعا خاصا لأنهم يشكلون موضوع معالجة سياسية وإعلامية، حيث تُقدّم الهجرة على أنها مشكل أو تهديد، سواء تعلق الأمر بمهاجرين جدد أو تسوية وضعية المهاجرين اللّاشرعين أو إدماج الأجيال التالية للهجرة. مهما يكن فإنّ الخطاب السياسي والإعلامي يجعل المهاجرين سبب اللّأمن."[16]

1. الاستثناء الاسباني:

تبقى الحالة الاستثنائية لإسبانيا مؤشرا مهما ساهم في هذه الظاهرة الجديدة، حيث عرفت هذه الأخيرة نموا اقتصاديا سريعا (boom économique) مع بداية 1998. ومن ثم أشركت في مشروعها التنموي اليد العاملة المغاربية، وتمّ فتح محطات بحرية لنقل المسافرين[17] كان لها الأثر في اجتذاب وتحفيز يد عاملة محلية على المغامرة بالعبور إلى الضفة الأخرى، هذه المغامرات هيما اصطلح عليه لاحقا بالحرقة.

إذ تعكس بعض الإحصائيات حركية هذه الهجرة من خلال نسبة اعتقال المهاجرين غير الشرعيين في البحر سنتي 1997–1998 والتي قدرت ب(14,2%) ، بينما تشير سنة 2000 إلى انخفاض نسبة اعتقال الحراقة قدرت ب (1,5%) كما يوضحه الشكل 04.[18]


الشكل رقم 04: نسبة اعتقال المهاجرين السريين.



[19] المصدر: اعتمدنا على إحصائيات مهدي لحلو

مقارنة بالأجيال السابقة التي سنحت لهم الفرصة بالهجرة العمالية إلى فرنسا ، يُعد

الجيل الجديد من الشباب غير محظوظ، برغم وجوده في عالم جديد تحكمه العولمة الاقتصادية وتطور تقنيات الاتصال والمواصلات. إذ يستشهد ليوزو بدراستين أمريكيتين تعتبران أنّ عصرنا هو عصر الهجرات لأنّه عصر الرأسمالية المهيمنة، عصر ثورة المواصلات وعصر بناء سوق عالمية للعمل.[20]

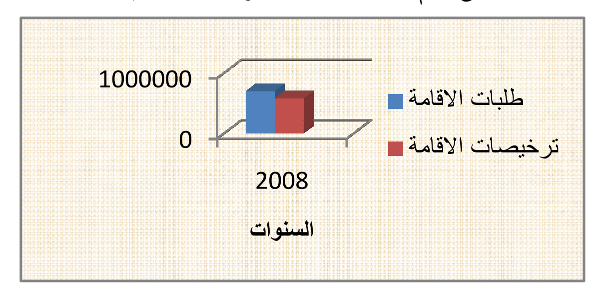
هذا الاستثناء قد نجده في بعض الدول الآسيوية النامية رأسماليا، نذكر على سبيل المثال لا الحصر(كوريا، الصين، ماليزيا وبعض دول الخليج). إضافة إلى تجارب بعض الدول العربية في سباقها التنموي "فهناك دراسات تؤكد العلاقة التبعية بين حركة الهجرة والتطور السياسي الاقتصادي الذي تعيشه الدول النامية (...) فالمرور من اقتصاد غير منتج إلى النظام الليبرالي الخاص يجذب استثمارات أجنبية مباشرة ومحفزة على إرساء إنتاج موجه نحو التصدير ويوفر مناصب عمل، مثالا على ذلك صناعة الأنسجة والملابس بالنسبة للأردن."[21]

ويشرح "فرانسوا ايرون" ذلك بتميز الصيغة الاسبانية، حيث تقوم على توظيف مختار للعمال المهاجرين الهادف للاستجابة للاحتياجات ا لمية للاقتصاد حسب قائمة مجالات محددة. بحيث تم إتباع هذا النظام لأول مرة سنة 1993. حين اجتمع مجلس الوزراء الاسباني ليحدد في ديسمبر مع نهاية السنة نسبة العمال المقبولين للسنة المقبلة. وهكذا أُعقب قرار ديسمبر 2003 بمرسوم يحدد بالضبـ عدد الوظائف المستقرة بـ 10908 وظيفة، وهي النسبة المسموح بها في كل اسبانيا لسنة 2004. فالإدارة العامة للهجرة في اسبانيا تمرر العروض بالأولوية إلى الدول التي وقعت معها معاهدات متبادلة والتي تتضمن إجراءات للحد من الهجرة اللاّشرعية."[22]

ويشرح "فرانسوا ايرون" ذلك بتميز الصيغة الاسبانية، حيث تقوم على توظيف مختار للعمال المهاجرين الهادف للاستجابة للاحتياجات ا لمية للاقتصاد حسب قائمة مجالات محددة. بحيث تم إتباع هذا النظام لأول مرة سنة 1993. حين اجتمع مجلس الوزراء الاسباني ليحدد في ديسمبر مع نهاية السنة نسبة العمال المقبولين للسنة المقبلة. وهكذا أُعقب قرار ديسمبر 2003 بمرسوم يحدد بالضبـ عدد الوظائف المستقرة بـ 10908 وظيفة، وهي النسبة المسموح بها في كل اسبانيا لسنة 2004. فالإدارة العامة للهجرة في اسبانيا تمرر العروض

بالأولوية إلى الدول التي وقعت معها معاهدات متبادلة والتي تتضمن إجراءات للحد من الهجرة اللاّشرعية."[23]

الشكل رقم 05: طلبات وترخيصات الإقامة باسبانيا خلال سنة 2008.

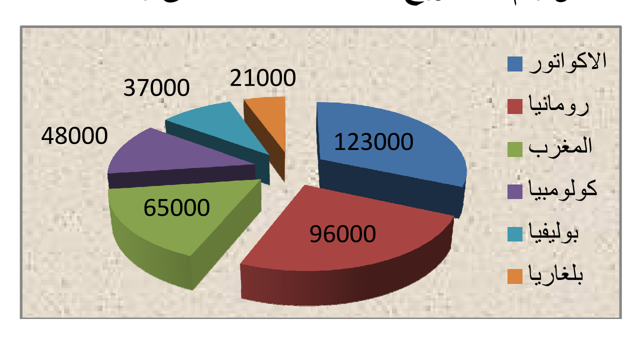


المصدر: اعتمدنا على إحصائيات "فرونسوا نايرون"[24]

اتبعت الحكومة الاسبانية في نفس الوقت عملية شاملة لتسوية وضعية العمال المهاجرين، والتي جعلت من نظام النسب هذا غير فعال. فمنذ فبراير إلى مايو 2008 انتهت التسوية ب 573300 ترخيص إقامة (هذه الأخيرة التي تفوق نسبة التوظيف خلال ثلاث سنوات السابقة)، لأغلبية قدّرت ب 691700 طلب.وفي نهاية 2005 أعلنت الإدارة العامة للهجرة حرية الانتقال حيث أن الذين استفادوا من التسوية لهم الحق في تغيير مجال العمل والمنطقة"[25]

يُعّد أحد الشباب المثال الأفضل للهجرة في هذا الاستثناء الاسباني ، حيث نجح هذا الأخير في الوصول إلى اسبانيا من أول محاولة وبالصبر والعمل والانضباط استطاع الحصول على العمل وأوراق الإقامة، هاجر عبر مليلية وعمل 5 سنوات في اسبانيا ثم حصل على الإقامة وهو حاليا يملك حرية التنقل. إذ صرح لنا عن ظروف هجرته كما يلي:" الوقت اللي خممت فيه في الحرقة كنت jeune وكنت courageux ومفلس ندير كلش وكنت الوحيد لمفلّس نتاع الدار....في اسبانيا شافونا خدامين وما نديروش المشاكل عطاونا الكواغ واليوم الحمد لله راني نروح ونجي ودرت شوي دراهم هنا في البلاد ولو كان ما ديرتش لكوراج ورحت حارف بالاك عمري ما نوصل وراني عاد مفلس. اليوم تعلمت بزاف صوالح في حياتي ووليت مسؤول نقابل الصلاة نتاعي وتايب".(بطال، 40 سنة)

الشكل رقم 06: توزيع الجنسيات الحاصلة على رخصة إقامة خلال سنة 2008:

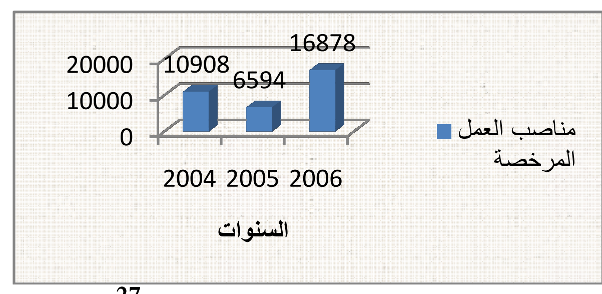


المصدر: اعتمدنا على إحصائيات "فرونسواناإيرون"[26]

بينما تعكس المسارات المتعثرة لبعض الشباب المهاجر إلى اسبانيا الشروط التي وضعتها السلطات الاسبانية لترخيص الإقامة والعمل للعمال المهاجرين. حيث تم ترحيل هؤلاء إلى الوطن بسبب أخطاء ارتكبوها، غير أنهم ما زالوا مصرين على محاولة الكرّة بأي ثمن بعدما جرّبوا الحياة وقارنوا وضعيتهم هنا وهنالك. مثل هذا الشاب اليافع الذي لم يلق صعوبات في الهجرة بعد أن تلقّى المساندة من خاله المهاجر. سافر سنة 2008 لكنه تسبب في مشاكل مع مجموعة من الشباب بإسبانيا، فتم طرده إلى الجزائر وهو حاليا يحلم بالعودة كما صرح لنا:

"عندي خالي الكبير عايش في اسبانيا نهار اللي راح أنا كنت ما زال رضيع و لما رجع وشاف الحالة نتاعي قالي انا لازم ندبر عليك باش تجي تعيش معايا وانا كنت قابل بلا تردد. وصلت لاسبانيا ومن بعد طردوني، ودروك راني باغي نرجع بأي طريقة ورانين حوّس على خير كيفاش نعاودها." (عامل في محّل، 20 سنة)

الشكل رقم 07: مناصب العمل المرخصة في اسبانيا.



المصدر: اعتمدنا على إحصائيات "فرونسواناإيرون"[27]

يوضح الشكل 06 أنه تم توفير 6594 منصب عمل في اسبانيا سنة 2005 ليرتفع العدد سنة 2006 إلى 16878 منصب عمل. هذا ما يعبر عن حجم الفرص المتاحة للذين نجحوا في العبور إلى اسبانيا، مثل هذا الشاب الذي هاجر سنة 2008 نتيجة ظروفه الاجتماعية المزرية عن طريق سبتة إلى فالونسيا؛ واشتغل بالفلاحة ثم أعيد الى الجزائر حسب تصريحه لنا: "بويا مسكين خدام شهرية ما لاحقش surtout في هاذ الوقت اللي وصلنا ليه، وصلنا لوحد الوقت عندك تسوا، ما عندكش ما تسواش. وصلت للثالثة ثانوي، خسرت الباك وما زيدش والحاجة الاولى اللي خلاتني نخمم في الحرڤة هي لقيت روحي في واحد الحالة لاavenir لاespoir في هاذ البلاد وزيد en plus ما عندك حتى حق. غير صحاب الرشوة والمعرفة ولكتاف اللّي عايشين والمسكين يعفسو عليه. (بطال، **25** سنة)

2. البطالة المقنعة وتدهور قيمة العمل:

كان العمل الأجير في المصانع يضمن للعامل الانتماء والاستقرار الاجتماعي، بغض النظر عن الظروف السيئة للعمل والنضال النقابي المرير الذي عرفه تاريخ البروليتاريا. في حين يجد الجيل الجديد من الشباب نفسه أمام اختيارين، ما بين الانغماس في التكوين لسنوات طويلة من أجل ضمان بعض الاستقرار أو خوض مسارات مختلفة متنوعة في البحث عن عمل مؤقت يضمن على الأقل الاستقلالية المالية في حالة التسرب المدرسي أو البطالة.

تنبئ هذا المسارات عن ظهور أشكال جديدة من العمل "الغير مستقر" أو "الموسمي" حسب تغيرات سوق العمل المتأثرة بالأزمات الاقتصادية.حيث يصرح لنا هاذين الشابين عن رحلتهما المريرة في البحث عن العمل، أحدهما جامعي والآخر متحصل على شهادة في التكوين المهني. يئسا بعد عدة محاولات ولم يفكرا في الهجرة إلاّ بسبب الرغبة في طرد شبح البطالة.

يعتبر أحدهما نفسه مجهول ومهضوم الحق باعتباره صاحب شهادة جامعية لم تضمن له العمل. هاجر سنة 2009 عبر البحر وصولا إلى الحدود المغربية فأرجع للجزائر،لكنه كالسابقين ما زال يحلم بالعودة كما صرح لنا:

"عندي بكالوريا + 3 ولا خدمة ولا زدمة والحمد لله، شحال وأنا نحوس وما لقيتش. هاذ le moment راني نبريكولي مرة هنا مرة لهيه، المهم الواحد ساتر راسو.. والحاجة الأولى اللي خلاتني نخمم باش نهجر من هاذ البقعة هي قريت ما طلعلي والو تمرت ما طلعلي والو هاذي حاجة كامل نعرفوها انا ما قدرتش نقعد في الحالة نتاع حشيشة طالبة معيشة هاذي كثر من 5 سنين وأنا نسيف في الدوسيات وlesdemandes وعمّر ما قبلوا،بعد قاع الصوالح وا ماين اللي فوتهم في حياتي ما بقاش l'espoir في هاذ البلاد نشق لبحر بالاك بصّح هنا يعرفولي شكون.عندي حلم باش نروح على خاطر في هاذ البلاد ما عطاونيش حقي". (عامل، 38 سنة)

أما الآخر فقد سافر سنة 2008 عبر البحر وصولا إلى اسبانيا، حيث أوقفتهم السلطات الاسبانية وبقي في أحد مراكز الهجرة لمدة شهر ثم أرجع للوطن. لكنه يأمل بالعودة كما يصرح فيما يلي:

"وصلت للسنة الثانية ثانوي، من بعد التحقت بالتكوين المهني وتحصلت على شهادة في حرفة نجارة الألمنيوم..بحثت عن أماكن العمل الخاصة بحرفتي ولم أجد، قدمت 5 ملفات للعمل في شركة نجارة الألمنيوم ورفضت والآن أعمل صياد في البحر..فكرت في الهجرة على خاطر ظروف الحياة القاسية والنفسية نتاعي اللي تعبت، حبيت نهجر باش نضمن لنفسي والأم نتاعي عيشة مليحة". (صياد، 24سنة)

فهل يُعد ما نلاحظه من حركية في مجتمعنا كمؤشرات أولية على تغيرات تعرفها السوق الوطنية للعمل. كانتقال العمال بين الولايات للعمل في ورشات البناء، مثل عمال باتنة[28] المتخصصين في نوع نادر من الحجر المزيّن لواجهات المنازل والبنايات، ومشاركة المرأة[29] في أعمال لم يكن المجتمع ليتقبّلها منذ فترة ليست ببعيدة.

إذ تتحول هذه العلاقة الحديثة بين الرأسماليين والأجراء بتواتر نسبي، وقد ساهمت التغيرات والتحولات التي أفرزها النصف الثاني من القرن العشرين في ظهورها في بداية هذا القرن إذ يشير "فوجر وكوك" إلى أنّ أغلب الدراسات النظرية والتطبيقية في الاقتصاد تعتبر أنّ هجرة العمال ذوي المؤهلات البسيطة ليس لها إلا تأثيرات بسيطة جدا على أجور ووظائف نظرائهم من العمال ا لمبين.[30]

3. الهجرة بين المخيال الشعبي وتحديات العولمة:

لقد جعلت العولمة الاقتصادية من العالم قرية تقارب سكانها بفضل تطور تكنولوجيات الاتصال والمواصلات (الهواتف المنقولة، الانترنيت، توفر وسائل النقل الجوية والأرضية والبحرية وانفتاح الأسواق ومعاهدات التجارة الدولية)، وخاصة في منطقة حوض البحر المتوسط . لذلك من المهم أن نتتبع العلاقة الاقتصادية عبر فترات تاريخية محدّدة لنعرف العلاقة الوطيدة التي تربط بين تطور الرأسمالية في الضفة الشمالية وتغير أوجه العامل في الضفتين على السواء، فمن الإقطاعي والعبد إلى المعمّر والخمّاس وصولا إلى الرأسمالي والأجير. وتستشهد ماري تيتو بتحليل "أ. تراي" "أنّ العلاقة بين الهجرة الغير شرعية والاقتصاد الليبرالي عملية توسع في السوق التجارية."[31]

ولكن برغم حاجتنا لفهم الواقع السوسيولوجي العام للظاهرة لا زال المخيال الشعبي يقوم بدور البوصلة الموجهة لأفكار وطموحات بعض الشباب، وإن كانت غالبا ما تعبّر عن استثناء أو بعض الاستثناءات لا يمكن تعميمها في النهاية على المجتمع برمته. فمثالنا هنا عن شاب هاجر بناءا على ما سمعه من قصص ناجحة في الهجرة، وشاءت الصدف أن يهاجر وتكون قصته واحدة من هذه الأخيرة حيث صرّح لنا بما يلي:

"تحملت المسؤولية بعد وفاة الأب لأعيل الأسرة..ثم فكرت في الهجرة،ساعدني أحد أقاربي للعبور إلى فرنسا عبر اسبانيا.أنا كنت نخدم على الدار وصلت لوحد le moment كرهت لمعيشة هنا وولاّت تبالي غير الحرڤة خاصة كي سمعت شحال من واحد راح واليوم راه بخير عليه ويضيف قائلا: "كان معاي الزهر كي صبت إنسانة جونتي كيما الزوجة نتاعي الفرنسية. وزيد عندها رزق بزاف، عندها أراضي في فرنسا ومحلات كتبتهم الكل على اسمي واليوم راني عايش مرة هنا مرة لهيه والحمد لله". (بطال، 41 سنة)

وإن كان واقع الحال يسري على أغلب الراغبين في الهجرة خاصة مع تشديد الرقابة البحرية بين دول الضفتين مما سبّب انخفاض نسبة وصول الحراڤة إلى المياه الاسبانية 45.7 بالمئة سنة 2009 بالنسبة لسنة 2008 حسب وزارة الداخلية الاسبانية التي أرجعت انخفاض هذه النسبة إلى الأثر المثبط لعمل الشرطة.[32]

فهنالك من يرفضه تماما ويتشبث بهذا المخيال، كهذا الشاب المتزوج والمسؤول عن أسرة، والدليل أنه برغم محاولاته العديدة الفاشلة ما يزال يحاول لحد الساعة. ففي مخياله مازالت أوروبا تمثل "الإلدورادو" الذي يجب اكتشافه.ثم هنالك من هو طموح ويبحث عن ظروف أرقى في المعيشة ويريد الوصول بأي ثمن إلى أوروبا التي يحلم بها. سافر سنة 2009 متزوج وأب سافر عدة مرات وفي كل مرة يفشل، يأمل دائما بالوصول إلى أوروبا كما صرح لنا:

"بالإرادة تعلمت الاسبانية والايطالية، درت dossier نتاع visa زوج مرات وما صدقتش وثلاث مرات هجرة سرية وما صدقتش تاني. وحتى دروك مازال ما قطعتش ليّاس..أنا المهم والله وتبقى فيّ شعرة غيرl'Europe اللّي واصلها وربي كبير» (صياد، 33سنة)

الخاتمة:

لا تُعّد الهجرة السرية ظاهرة جديدة فقد عُرفت منذ القرن الثامن عشر ويكفي الرجوع لمتن سجلات السفر للسفن البحرية للتأكد من ذلك. غير أنها ارتبطت منذ تسعينات القرن العشرين بموجات الهجرة التي شهدتها الجزائر على حدودها الصحراوية مع دول افريقية. آخذة شكلا جديدا بعد النمو الاقتصادي الذي عرفته اسبانيا في نفس الفترة، والذي تزامن مع تشكيل الاتحاد الأوروبي وتضييق الخناق على المهاجرين باختلاف دوافعهم.

حيث شكلت اسبانيا وما زالت لحد الآن الباب الوحيد نحو أوروبا في منطقة غرب المتوسط ، فمنذ ذلك الحين لم يذخر الشباب الجزائري جهدا أو رغبة في المجازفة والمغامرة لاقتناص فرصة عمل بإسبانيا. كما تزامن هذا مع ظروف سياسية وسوسيواقتصادية صعبة عرفتها الجزائر، قلّصت من فرص الشباب الذي استغلال ظروف والفرص وشكل مسارات فردية متفردة. أجمع المجتمع والإعلام والسلطات على اعتبارها ظاهرة "الحراقة" بامتياز.

فالشاب هنا حرق المراحل والظروف والمسافات والقوانين والصعوبات ليحقق هدفا واحدا وهو الوصول إلى أوروبا.في حين أجبرت بعض المتغيرات الجديدة الشباب الذين

يملكون نفس الحلم، أن يواجهوا مصائر قاسية كالموت والمرض والمعاناة في أوروبا الأحلام، ورغم هذا مازال بعضهم يحلم بهذا المشروع وينتظرون الفرصة السانحة للانطلاق نحو أرض الممكن والعمل والأمل حسب تصريحاتهم.

كما لاحظنا من خلال المميزات السوسيو مهنية للمبحوثين فإنّ الحراقة يشتركون في تشابه أوضاعهم الاجتماعية المزرية ولكن بتمثلات مختلفة.فاستنتجنا من مسارات هؤلاء الشباب، التي تراوحت بين المسارات الناجحة والمتعثرة وصولا إلى المسارات الفاشلة، بعدين لدراسة ظاهرة الهجرة السرية كما يلي:

البعد الأول: دراسة علم اجتماع الهجرة من خلال دراسة علم اجتماع دول الهجرة كما عبر عن ذلك صياد،[33] وتوافقه "كلودين شوليه" حين تعتبر التساؤل عن وجهة الهجرة أساسيا، فلماذا نهاجر إلى فرنسا أو إسبانيا[34]؟

البعد الثاني: دراسة العلاقة الثلاثية بين المهاجر السري والعمل والاقتصاد الرأسمالي العالمي، أي علاقة المهاجر بالعولمة؟ ونأخذ بعين الاعتبار ماصرّح به "صياد" بأنه لا يمكن تناول المهاجر بعيدا عن اعتباره قوة عمل محدودة ومؤقتة".[35]

الهوامش:

* كلمة *حراقة* بالدارج الجزائري مشتقة من الفعل أحرق في اللغة العربية: أحرق الشَّيءَ: أهلكه؟ أحرق سفنَه/ أحرق مراكبَه: قطع خ ّ الرَّجعة على نفسه، قطع صلته بالماضي. انظر قاموس المعاني **http://www.almaany.com**

** هذا المقال جزء من موضوع بحثنا المعنون الشباب الجزائري والهجرة السرية" تمثلات ومسارات ثلاث فئات شبانية أنموذجا" في إطار مشروع بحث حول الهجرة الدولية في الجزائر في الفترة المعاصرة 2008–2011، الكراسك، وهران.

[1] **Liauzu, Claude, *histoire des migrations en Méditerranée occidentale (questions au 20es),* éditions complexe, 1996, p.12.**

[2] **De Montlibert, Christian, « *la (s) relation (s) Sayad /Bourdieu* », 2ème rencontre autour Sayad, Oran, organisée par le CCF, l'ASPV et la cité nationale de l'histoire et de l'immigration, 2010.**

[3] قمنا ببحوث ميدانية داخل الجزائر وخارجها (فرنسا واسبانيا) مع شباب جامعي ومهاجرين غير شرعيين حول تمثلاتهم ومساراتهم في الهجرة، في إطار مشروع الهجرة الدولية في الجزائر في الفترة المعاصرة الكراسك– وهران.

[4] من التاريخيّة وهي الترجمة العربية للكلمة الفرنسية **historicité**، انظر القاموس العربي–الفرنسي، سهيل ادريس بمشاركة صبحي صالح، منشورات دار الآداب، بيروت،2004، ص616.

[5] **Slimane, Lotfi, *l'immigration clandestine : de main-d'œuvre dans la région Bruxelloises*, Bruylant Bruxelles, 1995, P. 6-7.**

[6] **Labdelaoui, Hocine, *les dimensions sociopolitiques de la politique Algérienne de lutte contre l'immigration irrégulière,* série sur la migration irrégulière, module sociopolitique, notes d'analyse et de synthèse CARIM-AS, 67, institut universitaire européen, RSCAS,2008, p.1.**

[7] القانون البحري 05/98 المؤرخ في 25 جوان 1998 يعدل ويتمم قانون 80/76 المؤرخ في 23 أكتوبر 1976 والمتضمن القانون البحري،وزارة النقل، الجريدة الرسمية، عدد 47، ص03.

[8] القانون الجديد 09/01 المؤرخ في 25 فبراير 2009 يعدّ قانون العقوبات، الجريدة الرسمية رقم 2009/15.

[9] **Rea, Andrea et Marys, Tripier, *sociologie de l'immigration« une remarquable introduction aux œuvres les plus marquantes »*, Recherches internationales, paris, édition la découverte, nouvelle édition, collection repères, 2008, p.28.**

[10] **Benguigui,Yamina, *Mémoires d'immigrés « l'héritage maghrébin »,* Canal+ Editions, 1997, p.15.**

[11] **Voir Noiriel, Gérard, L'immigration algérienne en France, article de la rubrique "les deux rives de la Méditerranée", date de publication : jeudi 12 juin 2008, Texte extrait des actes des journées de Larrazet (Tarn et Garonne) des 10 et 11 novembre 2006, consacrées à "La France et l'Algérie, l'histoire et l'avenir en partage". Site web :**

http://www.ldh-toulon.net/spip.php?article2734#nb16

EtWihtol de Wenden, Catherine, « Ouverture et fermeture de la France aux étrangers » Un siècle d'évolution, *Vingtième Siècle. Revue d'histoire*, 2002/1 no 73, p. 33.

DOI: 10.3917/ving.073.0027 http://www.cairn.info/revue-vingtieme-siecle-revue-d-histoire-2002-1-page-27.htm

[12] **Héran, François, *le temps des immigrés (essai sur le destin de la population française),* édition du seuil et la république des idées, 2007.**

[13] **Circulaires Sarkozy, Site Web : www.la-croix.com, site consulté le 31/05/2009.**

[14] **Héran, François, Op.cit., p.9.**

[15] هذا المصطلح يوحي بالمبالغة ولكن يعبر عن مصير الموت الذي عرفه بعض الشباب في عرض البحر في محاولاتهم للعبور إلى الضفة الأخرى.

[16] **A. Réa, M. Tripier, op.cit., p.88.**

[17] مثال عن ذلك ا طة البحرية الميريا–الغزوات التي كانت بمثابة الحافز للشباب الذي ينتمي إلى مدينة تعتمد في ديناميكيتها الاقتصادية والتجارية على نشاط الميناء.

[18] **Lahlou, Mehdi, *les migrations irrégulières entre le Maghreb et l'union Européenne : évolutions récentes*, rapports de recherche CARIM-RR, institut universitaire européen, RSCAS, 03/2005, p.6.**

[19] **Ibid.**

[20] **Liauzu, Claude, op.cit., p.12.**

[21] **De Bel-air, Françoise et Dergarabedian, Arda, 2006, *Globalisation, Migration internationales et politique : le cas des zones industrielles qualifiantes(QIZ) de Jordanie*, in De Bel-air, Françoise (dir.), *Migration et politique en Moyen Orient*, Beyrouth, IFPO, p .211.**

[22] **F. Héran, *le temps des immigrés*, Op.cit., p.37.**

[23] **F. Héran, *le temps des immigrés*, Op.cit., p.37.**

[24] **Ibid.**

[25] **Ibid.**

[26] **Ibid.**

[27] **Ibid.**

[28] برنامج تلفزيوني، "من واقعنا"، التلفزيون الجزائري، القناة الأولى، **2010**.

[29] نفترض أن هذا المؤشر يمكن تعميمه على كافة مدن الجزائر ،ومع هذا لا نملك تمثيل علمي لهذا الافتراض الذي استنتجناه من معايشتنا لواقع المرأة بالغزوات، منذ عشر سنوات كانت المرأة تقتصر على العمل في الحمامات، الإدارات الحكومية والمستشفيات وبنسبة كبيرة في التعليم، لكنها اليوم تعمل كبائعة في ا لات التجارية باختلافها، مطاعم، محلات بيع اللحوم، الحلويات، الملابس، المكتبات و في السكريتاريا لدى القطاع العام والخاص، وقد تقوم بنشاطات خاصة بها مثل ورشات الخياطة أو صنع الحلويات للمحلات التجارية.

[30] Fougère et Cahuc, in Héran François (dir), *immigration, marché du travail, intégration* (rapport du séminaire), Paris, la documentation française, 2000, p.323.

[31] Têtu, Marie–Thérèse, la migration au risque de l'illégalité entre France et Algérie (1998-2004), in*revue européenne des migrations internationales*, éditée par l'association pour l'étude des migrations internationales (AEMI), volume 24, n°3, Poitiers-Fr, 2008, p.107.

[32] « Almeria : 11 HarragasAlgériens recherchés en mer », *in le quotidien national du soir*, édition N°2059, 14/04/2010. Site : www.infosoir.com

[33] De Montlibert, Christian, Op.cit.

[34] Chaulet, Claudine, « *lecture croisée sur la Double Absence de A. Sayad* », 1ère rencontre autour Sayad, Oran, organisée par le CCF, l'ASPV et le CRASC, 2010.

[35] Ibid.